

الكلمات المعربة مكتوبة عن السلف وطبيعة النسخ، وتكراره من عدد كبير من *النساخ* يُولّد عادة التصحيف أو التحريف. ومن الأمثلة على ذلك ما ظنه إبراهيم بن مراد من أن ابن الجزار قد غير حرف الدال في آخر الكلمة إلى لام (24) ولا أظنه على صواب في رأيه بل إن ما وجد من تغيير يعود إلى تحريف *النساخ* لغير وما يرجح ما قلناه كثرة وقوع التحريف بين الدال واللام إذا كان الحرفان في آخر الكلمة.

ثانياً : أثر العربية في بناء المعرف:

لم يقتصر التغيير الذي أحدثته العربية في الكلمة الأعجمية على الأصوات وإنما شمل البناء أيضاً من أجل أن تتواءم المفردات العربية مع العربية وتكون مألوفة ومستساغة عند التداول نطقاً وسماعاً.

وقد فطن اللغويون العرب القدماء إلى ما أحدثته العربية من تغيير في بناء اللفظ المعرّب فقد قال سيبويه "إن العرب لما أرادوا أن يعربوه لحقوه ببناء كلامهم" (25).

وإن إلحاق اللفظ الأعجمي بالبناء العربي يستلزم أحياناً الحذف من الكلمة أو الزيادة عليها. وهذا ما أشار إليه سيبويه أيضاً بقوله "ورِمَّا حذفوا كما يحذفون في الإضافة ويزيدون كما يزيدون فيما يبلغون به البناء وما لا يبلغون به بناهم" (26).

فالزيادة أو الحذف الذي يجريه العرب على اللفظ الأعجمي لاجعله مضارعاً للبناء العربي دائماً، فقد تتحقق هذه المضارعة أولاً. ثم إن العرب لم يتزموا بضرورة تغيير بناء اللفظ المعرّب ليكون مناظراً للبناء العربي دائماً بل إنهم "رمّا لحقوه ببناء كلامهم ورمّا لم يلحقوه" (27).

وقد يبين الحاليني التغييرات التي يجريها العربي على

الأميون قسماً منها أيضاً، فقد عرب بعض أرباب المهن المفردات الخاصة بعملهم وشنان بين منهج كل منها في عمله، فالعلماء يخضعون عملهم للأسس الصوتية الدقيقة في حين أن عمل الأمي يخضع للانطباع ويتحمل الخطأ وعدم الدقة. كل ذلك يؤدي إلى اختلاف نطقهم للصوت الواحد عند تعرييه.

8 - إن المفردات الأعجمية التي عربت لم تكن كلها مأخوذة من اللغة الأعجمية مباشرة وإنما نقل قسم منها عن طريق لغة وسيطة كما حدث عند تعريب قسم من الألفاظ اليونانية فقد أخذت عن طريق اللغة السريانية، ولأدل على ذلك من تشابهها معها أكثر من شبهها باللغة اليونانية (22).

واللغة السريانية لاختلف عن غيرها من اللغات في ادخال بعض التغيير على أصوات المفردات التي تنقلها إليها، وهذا يعني أن المفردات التي تُعرب عن طريقها قد حدث فيها التغيير مرتين مرة في اللغة الوسيطة وأخرى عند التعريب. ولاشك أن ذلك سوف يؤدي إلى اختلاف نطق الأصوات بين العربية واليونانية.

9 - لعل من أسباب اختلاف الأصوات العربية عن الأعجمية أن العربي المعرّب لها قد غيرها عن قصد منه ووعي - وبخاصة إذا كان المعرّب عالماً - من أجل عدم الوقوع في اللبس اللغوي ودفعاً عن الاشتباه بكلمة أخرى عربية. فقد غير صوت كلمة (بادية) الفارسية التي تعني نوعاً من الأوعية إلى كلمة (باطية) لتحاشي اشتباهاً مع كلمة (بادية) العربية التي تعني الصحراء (23).

10 - لعل للتصحيف أو التحريف دور في ما يلاحظ من اختلاف بين المعرّب والأعجمي لأن الخلف قد تسلم أكثر

موجودة في لغتها الأصلية والعرب لا يزيدون في البناء عند التعریف.

وهذا الرأي يخالفه أغلب اللغويون كما تکفى مقارنة سريعة بين الكلمات المعرفة والأصل الذي افترضت منه لمعرفة عدم دقة هذا الرأي. ونأخذ مثالاً على ذلك من الكلمات اليونانية فإن قسماً من كلماتها المبدوءة بساكن تزاد همزة عند تعریفها كما في أسطول وإسفنج وإسکيم وإقلیم (34).

ج - حذف حرف أو أكثر من الكلمة من ذلك أنهم عربوا لفظة (غالغا) السريانية التي تعني الفقر إلى (فلج) (35) بعد أن حذفوا منها الألف من وسطها.

د - دمج كمتين في كلمة واحدة من ذلك تعریفهم مرکب (سدلي) إلى السدیر " وأصله سدلی أو ثلث قباب بعضها في بعض" (36). ومن ذلك أيضاً كلمة سحیل فإنها معرف سفك وكل (37).

هـ - تغير في تشكيل حركات اللفظ عن طريق تسکین متحرك أو تحریک ساکن أو تغيیر حركة باخیرى كما فعلوا عند تعریف زور و آشوب (38).

وقد يشمل التغيير في البناء أكثر من نقطة مما سبق من ذلك عند تعریفهم كلمة (أرزرز) إلى (الرصاص) فقد حذف منها حرف الألف في أولها وغيرت حركة الراء إلى الفتح بعد أن كانت ساکنة (39). هذا غير ما أبدلوه من أصوات الكلمة الأخرى.

ثالثاً: إدخالهم إحدى التغييرات السابقة الذكر عليه أو أكثر لكنهم لم يلحقوه بناء العربية من ذلك تغيير الفتحة في الكلمة أبیریشم - عند تعریفها - إلى کسرة

بناء الألفاظ الأعجمية ويكون "إبدال حرف من حرف أو زيادة حرف أو نقصان حرف أو إبدال حركة بحركة أو إسكان متحرك أو تحریک ساکن وربما تركوا الحرف على حاله لم يغيروه" (28).

وعلى ما تقدم نصل إلى أن العرب لم يتزموا بقاعدة ثابتة تنظم عملية تغيير البناء في الأعجمي عند تعریفه وإنما لهم مواقف مختلفة إزاء المعربات بحملها. مما يأتي:

أولاً : إذا كان بناء الألفاظ الأعجمية موافقاً لأحد الأبنية العربية فلا يحذفون فيه أي تغيير عند التعریف غالباً لأنه يوافق ما ألفوه من الألفاظ . وإن أكثر المعربات على هذا النحو.

ثانياً : إذا كان اللفظ الأعجمي لا يشابه أحد الأوزان العربية فإنهم اخذوا منه أحد الموقفين الآتيين:

١ - إدخالهم عليه واحد من التغييرات الآتية أو أكثر وأنحقوه ببنائهم:

١ - حذف بعض حروف الكلمة من الأعجمية كما في (فيروزج) فقد حذفوا الحرف الأخير منها عند التعریف وأصبحت فيروز (29). ومثل ذلك ماعملوه في (كرد) فأصله (كردن) (30).

ب - إضافة حرف أو أكثر على الكلمة الأعجمية من ذلك كلمة (هليلة) فقد عربت إلى إهليج (31) بزيادة الهمزة في بدايتها مع تغيير في أحد حروفها. ومثل ذلك زيادتهم الهاء في (قرمان) فقالوا (قهرمان) (32).

وقد أنكر الصغانی أن يكون العرب قد زادوا في حروف الكلمة وعلى ذلك فإنه خطأ من عرب الكلمة أنموذج (32) وأصر على حذف الهمزة منها لأنها غير

المعربين المختلفين في عملهم. ولعل هذا ما يفسر لنا تعریب بعض المفردات على أكثر من بناء وتعریب الكلمات الأعجمية التي على بناء واحد إلى أبنية مختلفة.

2 - إن الذين عربوا المفردات يختلفون في مستوياتهم العلمية والثقافية واللغوية فمنهم الخواص المتضلعون باللغة ومنهم العوام الذين قد تفشي اللحن على ألسنتهم. وشنان بين عمل كل منهما. فعمل العالم يتسم بالدقة العلمية ويحاول عن قصد أو بدونه جعل ما يعربه من مفردات مشابهاً لبناء الكلمات العربية، لأن طبع الإنسان يميل إلى ما ألف وينفر مما استغرب. ولاشك أن العالم باللغة قد ألف طريقة العرب في البناء فيجعل ما يعربه من الفاظ أعجمية موائماً لما ألف فتكون الألفاظ المعربة عن طريقه تشبه الأبنية العربية. في حين أن عمل العامي العرب للألفاظ لا يكون كذلك بجهله بطريقة العرب في البناء فما يعربه يخالف قسم منه على الأقل البناء العربي.

3 - لم يقتصر التعریب على شخص أو أشخاص معينين أو جان علمية كما أن المعربين لم يكن بينهم اتفاق مسبق بأن يراعوا في عملهم البناء العربي حتى عند العلماء منهم فضلاً عن العوام. ولعل خير دليل على ما ذكرناه قول الفراء بأن الاسم الفارسي يعني "أي بناء كان إذا لم يخرج عن أبنية العرب" (45).

4 - الخطأ في النطق أو السمع قد يؤدي إلى الاختلاف في بناء الكلمة وقد فطن أبو عمر الجرمي إلى ذلك فقال "إذا حكى لك في الأعجمية خلاف ما العلامة عليه؟ فلا ترتبه تخليطاً فإن العرب تخلط فيه وتتكلّم به مخلطاً لأنه ليس من كلامهم فما اعتنقوه وتتكلّموا به خلطوا" (46). والتخلط لا يقتصر على الغلط في نقل الأصوات

فصارت يبرر (40). وعلوم أن "مثل هذا الوزن مفقود في أبنية الأسماء العربية" (41).

رابعاً: استعمال الكلمة المعربة في أكثر من بناء ولعل خير مثال على ذلك استعمالهم الكلمة التي تدل على الطائر المعروف بالشاهين ببناءات مختلفة وهي "السودان" والسوداني والسودق بالشين المعجمة. قال ووجد بخط الأصمعي شودان وشودنوق - وكلمة الشاهين وهو فارسي معرب - وسودق أيضاً" (42).

خامساً: إبقاء الكلمة على بنائها الأعجمي من غير تغيير فيه وقد ذكر سيبويه هذا النوع من التعریب بقوله "إن العرب ربما غيروا الحرف الذي ليس من حروفهم ولم يغيروه عند بنائه في الفارسية نحو... آخر وحرizer" (43). وقال عنه الجوابي أيضاً "وما تركوه على حاله فلم يغيروه خراسان وخرم وكركم" (44).

ويملأ حظ على جهود العرب في تعریب البناء أنه لم يكن وفق منهج علمي ثابت أو قاعدة محددة يراعيها المعربون فتبينت جهودهم واحتلت تعریباتهم من حيث الدقة وعدمها. ونخال أن نجد تعليلاً معقولاً يفسر لنا ذلك فيما يأتي:

1 - إن تقييد قواعد علم الصرف بما فيها قواعد البناء والميزان الصريفي قد تم في القرن الثاني الهجري في حين أن عملية تعریب الألفاظ قد بدأت قبل هذا التاريخ بقرنين أو أكثر واستمرت حتى يومنا هذا أي أن كثيراً من المفردات العربية لم تخضع لقواعد علم الصرف؛ لأنها لم توجد بعد. وبعد ما وجدت واستقر علم الصرف عليها لم يلتزم بعض المعربين بها إما لجهلهم بهذه القواعد أو للغفلة عنها أو لأي سبب آخر. وهذا ما يؤدي حتماً إلى عدم اتفاق

وبخاصة بعد استعمالها في هذا المعنى بالقرآن الكريم. قال تعالى : الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون (٥٠).

٢ - **تعظيم الدلالة**: ويقصد به ما يلحق معنى الكلمة من تطور يوسعه ويزيد في شموله. وقد حدث ذلك في عدد من الألفاظ العربية، ومنها كلمة الزخرف فقد كانت تدل في اللغة اليونانية على التزيين برسم الحيوانات، وهي مركب لغوي من كلمتين (زو) أي الحيوانات و (جرافيا) أي يكتب أو يرسم ، وبعد أن دخلت إلى العربية صارت تدل على عدة معانٍ (٥١) منها التزيين بأي شيء أو شكل ولا يقتصر على التزيين بالحيوان (٥٢).

ومن الألفاظ التي تعتمد معناها بعد تعريفيها (التاجر) فإن معناها في الآرامية بائع الخمر خاصة (٥٣) وتوسيع معناها بعد دخولها إلى العربية إلى كل بائع السلع وال الحاجات خمراً كان أم غيرها (٥٤).

٣ - **تغيير مجال الاستعمال** : ويقصد به تطور دلالة الكلمة إلى معنى مختلف تماماً عما كانت عليه. وقد فطن الحفاجي إلى التبدل الذي طرأ على دلالة بعض المفردات بعد التعريب بقوله " وقد يعرب لفظ لم يستعمل في معنى آخر غير ما كان موضوعاً له كحرم اسم نبت يشبه به الشيب وهو سراج القطرب واستعماله بهذا المعنى مخصوص بالعربية " (٥٥).

وما تغيرت دلالته بعد تعريفيه كلمة "برزخ التي تدل في الفارسية على البكاء والتحبيب فتغيرت دلالتها بعد التعريب إلى كل حاجز بين الشيئين وما بين الدنيا والآخرة " (٥٦).

وإنما يعم الغلط في صوغ البناء أيضا.

ثالثاً: أثر العربية في دلالة المعرف:

تصف دلالات الألفاظ وخاصة قبورها للتطور اللغوي أي أنها لاتبقى دائماً ملزمة للمعنى الذي كانت عليه في بدايات نشأة اللغة إن تهيأت لها عوامل لغوية معينة. ومنها دخول المفردة إلى لغة أجنبية تجعلها منقطعة عن أسرتها اللغوية وهذا ما ييسر عملية حدوث التطور فيها.

والتطور الدلالي يتخذ مظاهر مختلفة فاما أن يكون من الشدة بحيث يؤدي إلى أن تترك المفردة معناها السابق وتقطع الصلة بينها وبينه وتكتسب معنى جديداً لا نعرف إلا به غالباً وإما ألا يصل التطور إلى هذه الدرجة فيكون المعنى الجديد له علاقة بالسابق لكنه أخص منه أو أعم. وللغة العربية قد أثرت في دلالة المفردات العربية عن طريق تخصيص دلالتها أو تعديها أو تغيير مجال استعمالها، وكما يأتي :

١ - **تخصيص الدلالة**: يقصد بهذا النوع من التطور ما يلحق بالكلمة من تغيير يقلص فيه المعنى ويقلل من اتساعه. وقد خصصت اللغة العربية بعض المفردات العربية من ذلك كلمة (كنده) الفارسية التي تعني المخمور المحدود، والكهف في الصحراء (٤٧) قد تخصص معناها بعد تعريفيها إلى "الحفيرون حول أسوار المدن" (٤٨) من أجل الدفاع عنها.

ومن ذلك أيضاً كلمة الفردوس فهي في اللغة اليونانية تدل على البستان سواء أكان محاطاً بالسور أو الكرم وقد تقلص معناها بعد التعريب إلى الجنة (٤٩)،

المواضيع

- 1) الكتاب نسيبويه .303/4
 - 2) الكتاب نسيبويه .304/4
 - 3) الكتاب نسيبويه .304/4
 - 4) الكتاب نسيبويه .305/4
 - 5) المعرف للجواليقي ص 54.
 - 6) شفاء العليل للخفاجي ص 25.
 - 7) المعرف للجواليقي ص 54-55 وانظر شفاء العليل للخفاجي ص 25.
 - 8) انظر المعرف للجواليقي ص 55.
 - 9) المهر للسيوطى 1/272.
 - 10) المهر للسيوطى 1/274.
 - 11) غرائب اللغة لرفائيل خللة ص 25-251.
 - 12) المهر للسيوطى 1/274.
 - 13) معجم الدخيل في العربية لطه باقر ص 59.
 - 14) المعرف الصوتي عند العلماء المغاربة لإبراهيم بن مراد ص 118.
 - 15) انظر الكتاب نسيبويه .305/4 والمعرف للجواليقي ص 54 وشفاء العليل للخفاجي ص 25.
 - 16) المعرف للجواليقي ص 54.
 - 17) نظرات في اللغة للدكتور محمد مصطفى رضوان ص 222.
 - 18) أثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج للدكتور مسعود بوبو ص 192.
 - 19) انظر المعرف للجواليقي ص 56.
 - 20) المعرف للجواليقي ص 56.
 - 21) أثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج للدكتور مسعود بوبو ص 196.
 - 22) انظر غرائب اللغة العربية لرفائيل خللة ص 250.
 - 23) انظر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج .196.
 - 24) انظر المعرف الصوتي عند العلماء المغاربة ص 119.
- 25) الكتاب نسيبويه .304/4
 - 26) المصدر السابق .304/4
 - 27) المصدر السابق .304/4
 - 28) المعرف للجواليقي ص 54.
 - 29) انظر المعرف للجواليقي ص 56.
 - 30) انظر في التعریف والمعرف ص 23.
 - 31) انظر شفاء الغليل للخفاجي ص 40.
 - 32) انظر في التعریف والمعرف ص 23.
 - 33) انظر شفاء الغليل للخفاجي ص 40.
 - 34) انظر غرائب اللغة لرفائيل خللة ص 250.
 - 35) انظر المهر للسيوطى 1/287.
 - 36) المهر للسيوطى 1/280.
 - 37) انظر شفاء الغليل للخفاجي ص 31.
 - 38) انظر المعرف للجواليقي ص 56.
 - 39) انظر المهر للسيوطى 1/282.
 - 40) انظر المعرف للجواليقي ص 56 والمهر للسيوطى 1/270.
 - 41) المهر للسيوطى 1/270.
 - 42) المهر للسيوطى 1/287.
 - 43) الكتاب نسيبويه .304/4
 - 44) المعرف للجواليقي ص 56 وانظر شفاء الغليل ص 30.
 - 45) المعرف للجواليقي ص 57.
 - 46) المصدر السابق ص 57.
 - 47) انظر تفسير الأنماط الدخلية في اللغة العربية لطوبيا العنيسي ص 25 وأثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج ص 347.
 - 48) القاموس الحبيط لفيرور آبادي (جندق) 3/237 وانظر الأنماط الفارسية المعرفة لأدى شير ص 57.
 - 49) انظر أثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج .347.
 - 50) سورة الكهف آية 107.

- 54) انظر أثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج ص 243.
- 55) شفاء الغليل للخفاجى ص 23.
- 56) أثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج ص 300.
- 51) انظر معانى كلمة زخرف في القاموس المحيط (زخرف) .152/3
- 52) انظر أثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج ص 339.
- 53) غرائب اللغة العربية لرفائيل خللة ص 175.
-

مصادر البحث ومراجعة

- 1 - أثر الدخيل على العربية في عصر الاحتجاج للدكتور مسعود بوبو، دمشق سنة 1982م.
- 2 - أحکام تحویل القرآن الكريم في ضوء علم الأصوات الحديث للدكتور عبد الله عبد الحميد سويد، ط 2 لیبیا، بلا تاريخ.
- 3 - الألفاظ الفارسية المعربة لأدی شیر، بيروت سنة 1908م.
- 4 - تفسير الألفاظ الدخلية في اللغة العربية مع ذكر أصلها بمعرفة طه طه العتيسي، القاهرة سنة 1965م.
- 5 - شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل لشهاب الدين أحمد الخفاجى، نشره محمد عبد المنعم خفاجى، ط 1 القاهرة سنة 1952م.
- 6 - غرائب اللغة العربية لرفائيل خللة اليسوعي، ط 2 بيروت سنة 1959م.
- 7 - في التعريب والمعرب لابن بري، تحقيق د/ابراهيم السامرائي، ط 1 بيروت سنة 1985م.
- 8 - القاموس المحيط محمد بن يعقوب الفيروز آبادى، ط 2 سنة 1952م.
- 9 - قرار مجتمع اللغة العربية الأردنى المنشور في مجلة المجمع، العدد 40 لسنة 1991م.
- 10 - الكتاب لسيبوبيه، تحقيق محمد عبد السلام هارون، القاهرة سنة 1963م.
- 11 - المزهر في علوم اللغة وأنواعها لجلال الدين السيوطي، تحقيق جنة من الأساتذة، القاهرة سنة 1960.
- 12 - المصطلحات الفنية للدكتور صادق الهملا، يـ ثـ نـ شـرـ في مجلـةـ اللـسانـ الـعـرـبـيـ، مـكـتبـ تـسـيـقـ التـعـرـيبـ، الـربـاطـ، العـدـدـ 27ـ لـسـنـةـ 1986ـ.
- 13 - المصطلح العلمي العربي قديماً وحديثاً للدكتور مناف مهدي محمد، يـ ثـ نـ شـرـ في مجلـةـ اللـسانـ الـعـرـبـيـ ، مـكـتبـ تـسـيـقـ التـعـرـيبـ، الـربـاطـ، العـدـدـ 30ـ لـسـنـةـ 1988ـ.
- 14 - المغرب الصوتي عند العلماء المغاربة لإبراهيم بن مراد، تونس سنة 1978.
- 15 - معجم الدخيل في اللغة لطه باقر، بيروت . بلا تاريخ.
- 16 - المغرب من الكلام الأعجمي لأبي منصور الجواهري، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة سنة 1969م.
- 17 - نظرات في اللغة للدكتور محمد مصطفى رضوان، ط 1 لیبیا 1976.

الكتابة بين السريانية والערבية

الدكتور / محمد علي الزركان

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة حلب / سوريا

تهييد

قبل الميلاد، وفي جزيرة كريت وفي الهند وفي الصين في مستهل الألف الثاني قبل الميلاد (3).

ولما كان الخط المقطعي صعباً ومعقداً لاحتواه على نيف وخمسين رمز أو مقطع، إضافة إلى الحركات التي تعطي الرمز المقطعي الواحد معاني عده، كان لابد للإنسان أن يتوصل إلى أسلوب كتابي أكثر بساطة وأقل تعقيداً.

وقد ظهرت في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد كتابة تدل فيها الصور والرموز على مخارج صوتية تتالف منها المقاطع، وهذه بداية عهد جديد مشرق في علم الكتابة ، جاء نتيجة تطور طويل على مر الأجيال. لذلك يرجح الأستاذ طه باقر أدوار الكتابة بما يلي : (4)

- 1- دور الإشارات والرموز " الإشارة تدل على عمل " .
- 2- الدور الصوري والدور الرمزي " الإشارة تدل على كلمة " .

- 3- الدور الانتقالي إلى الدور الكتابي المختلط المسمى بالخط المسماري " الإشارة تدل على مقطع " .
- 4- دور الحروف الهجائية ، الدور الصوتي المجرد " الإشارة تدل على حرف " .

بدأت محاولات الإنسان منذ أقدم العصور للتعبير عن أعماله وما يمرّى في ذهنه بأسلوب يبقى للمستقبل القريب أو البعيد.

ولقد عثّر الباحثون في أماكن عديدة من الدنيا، وفي موطن الساميين خاصة على رسوم ونقوش ولوحات، تظهر أطوار الكتابة، وتبين من هذه الرسوم والإشارات المنحوتة في جدران الكهوف، أن الإنسان بدأ يعبر عما يدور في خلده منذ أزمان بعيدة (1).

وفي الألف الخامس قبل الميلاد تطور هذا الأسلوب في جنوب وادي الرافدين ومصر القديمة، حتى اتخذ أشكالاً وصوراً ورموزاً متتابعة تدل كل منها على كلمة، ويشير بجموعها إلى سلسلة من الحوادث، وسميت هذه الكتابة (الصورية) وفي الألف الثالث قبل الميلاد، راح شعب جنوبي الرافين في تطوير الكتابة التي أحذت الإشارات والرموز فيها الشكل المثلث الاسفيني المسمى بالخط المسماري والذي تدل كل إشارة فيه على مقطع (2).

وقد ظهر بعد ذلك أسلوب الكتابة المقطعة في نواح عديدة من العالم، فظهر في مصر في مستهل الألف الثالث

الكتابة الأنجذبية:

ومن أعظم مآثر الإنسانية في العصور القديمة هو ابتكار الحروف الهجائية الأنجذبية، ذلك الإناء العجيب الذي استوعب تاريخ البشرية من جمجم نواحيه. إن تساؤلات كثيرة قد ترد إلى الذهن... ترى متى تم هذا الإنجاز الفذ؟ من قام به؟ وأين؟...؟ أسئلة بذل العلماء والباحثون مجهدات جباره طوال قرون عديدة للإجابة عنها، إلا أن الحقيقة لما تتجلى بعد، وما يزال العلماء تبعاً للاكتشافات الجديدة، ينقضون نظرية وينسون أخرى... كالنظريّة المصريّة وكنظريّة ما بين النهرين، ونظريّة طور سيناء وغيرها⁽⁵⁾.

تفرع الأنجذبية السامية:

مثلما انقسم الشعب السامي فيما قبل التاريخ إلى أقوام وقبائل كثيرة، وتشعبت لغته السامية الأم إلى لغات عديدة. كذلك تفرعت الأنجذبية السامية الشمالية الأولى التي ابتكرها الساميون في سوريا وكتعان إلى أربعة أقلام قديمة رئيسة:

١- **القلم السامي الجنوبي:** انتشر في حينه في جنوب شبه الجزيرة العربية وعبر البحر الأحمر إلى الحبشة، وانتشر بعد ذلك بين قبائل الجزيرة العربية، وتولدت منه الأقلام اللحيانية والثمودية والصفوية (نسبة إلى الصفا قرب حوران) في حين لم تقم له قائمة إلا في القلم الحبشي.

٢- **القلم الفينيقي القديم:** تولد منه القلم الفينيقي المتأخر، وانتقل مع بعض التغيير إلى المستعمرات الفينيقية في شمال إفريقيا على سواحل البحر الأبيض المتوسط، كقلم قرطاجنة وقلم ليبيا القديم، كما تولد

منه أيضاً القلم الإيبيري (الإسباني القديم)، وقد انقرضت جميعها، ويرى العديد من الباحثين أن الأنجذبية اليونانية (أم الأقلام الغربية كافة) اقتبست من الفينيقية.

٣- **القلم العربي القديم:** تولد منه الأقلام التالية: المرأبي والأدومي والعموني والسامرتي، ولم يبق منها إلا الأغبر على نطاق ضيق جداً.

٤- **القلم الآرامي:** وقد تولدت منه أنجذبيات كثيرة.⁽⁶⁾ وهكذا يتضح للقارئ بعد هذه المقدمة السريعة أن الأقوام القديمة بناة حضارة ما بين النهرين ومصر وحرر بحر إيجه وأسيا الصغرى ووادي الهندوس والصين قد توصلوا إلى أسلوب متتطور في تاريخ الكتابة، إلا أنهم لم يتمكروا من بلوغ الطور الأخير -أعني الطور الأنجدبي- وهو ما توصل إليه الشعب السامي في بلاد الشام والعراق، وتلك واحدة من أعظم مآثر الساميين التي أورثوها للبشرية وستتابع في الصفحات القادمة الفصول المتعلقة بالكتابة في السريانية والعربية وبما أن السريانية وارثة الآرامية، فقد مهدت لها بفضل لينير الطريق أمامها في بحث الكتابة السريانية والعربية.⁽⁷⁾ (ينظر الأشكال ١-٢-٣-٤).

-الكتابة الآرامية:

سأتناول في هذا الجزء الكتابة الآرامية بشكل سريع لأنها تعد الأم التي غذت بلبانها القلمين السرياني والعربي. ولا غرابة في ذلك فقد اقتبس الآراميون كتابتهم من الأنجذبية السامية الشمالية مباشرة، ولما غزت لغتهم ما بين النهرين في القرون الأولى من الألف الثاني قبل الميلاد، دخلت معها كتابتهم الأنجذبية السهلة

مطمورة تحت الأرض في نينوى بقرب الموصل وأماكن أخرى. غير أن هذا القلم القديم تغير شيئاً فشيئاً في تتابع الأزمان حتى ذهب عنه الشكل المسماري وتولد منه قلم جديد يخطط الحروف، متشابهة حروفه بحروف القلم المسماري. وهذا القلم البكر منذ الأزمان القديمة تولد منه أقلام كثيرة مشابهة بعضها البعض مع اختلاف أزمانها وأماكنها. أما ما هو معروف اليوم من هذه الأقلام المتولدة من القلم الأصلي، فأولاً: القلم السامري الذي كان اليهود يستعملونه قبل جلائهم إلى بابل، وإلى الآن يستعمله السمرة القليل عددهم. ومنها القلم الفوني أو الفونيقي، أي المكتوب على الأحجار القديمة التي وجدت وتوجد إلى اليوم في الجانب العربي من بلاد الشام. والقلم التدميري المنقوش في آثار مدينة تدمر المشهورة وما يجاورها. والقلم الذي يسميه علماؤنا بالنبطي وهو الذي كان يستعمله جيل من السريان في بلاد الشام وببلاد العرب يقال لهم النبط. ومن هنا القلم نتج القلم الحميري العربي الذي منه تولد القلم الكوفي ومن هذا نشأ القلم العربي المعروف اليوم الذي يقال له النسخي. (11)

وأقدم قلم آرامي اتصل بنا عهده في الكتب المسطورة هو القلم البابلي المستعمل في زمان كورش ملك فارس. وهو الذي تعلميه اليهود في جلائهم إلى بابل وبعد رجوعهم إلى أرضهم في القرن السادس قبل المسيح، لم يزالوا يستعملونه إلى يومنا هذا، ويسمونه القلم الآشوري، والسامريون يسمونه اليهودي، ويسميه علماء الفرنج القلم المربع لأن حروفه أكثرها مربع تقريباً. وحروف هذا القلم تشبه كثيراً الحروف اليونانية فنرى أن

البساطة. فلقد تهيأ للأرامية من الأساليب ما جعلها تنتشر في الشرق من أقصاه إلى أقصاه، لسهولة أبجديتها وبساطة اشتراقها وقواعد خوارها.

ونظراً لكون القبائل الآرامية متاخمة، وأحياناً متداخلة مع الإمبراطورية الآشورية دون بقية الأمم ذات الكتابة الأبجدية كالفينيقيين والعربين والعرب الجنوبيين نذلت انتشار الخط مع توسيع الإمبراطورية الآشورية التي شجعه ثم زاد ازدهاراً في عهد الإمبراطورية البابلية الكلدانية وارثة الآشورية. فأزاحت الكتابة الآرامية الخطوط المسمارية بمختلف أنواعها، والخطوط الأبجدية السامية الشمالية كالعربي والفينيقي بفروعهما، وتعودت إلى اللغات غير السامية (8).

وآخر خط أزاحته هو الخط العربي الجنوبي (المسند)، وذلك حينما احتفت الخطوط اللحيانية والشومدية والصفوية في شمال الجزيرة العربية، ثم في جنوبها أمام الخط العربي المنحدر من الكتابة النبطية الآرامية.

ويلاحظ أنه لم يعثر على آثار للخط الآرامي بين القرنين الرابع والثاني قبل الميلاد إذ أنه العهد الذي تكونت فيه كتابات آرامية محلية كالعبرية المربعة والنبطية والتدميرية والحضرية والسامرينية، فيليس من السهل الكشف عن مدى تأثير الكتابة الآرامية في الطور الأول على بناتها كتابات الطور الثاني. (9)

يقول صاحب اللمعة الشهية (10): "أما القلم الأول الذي اخترعه الآراميون فلا يعلم بتحقيق كيف كانت صور حروفه فرداً فرداً. ولكن ذهب بعض العلماء في عصرنا إلى أن هذا القلم هو القلم المسماري الذي يرى في الكتابات المرسومة على الأحجار الكثيرة التي كانت

أبقيت على لغتها الآرامية، منها دولة النبط ودولة تدمر ودولة الحضر ودولة الراها وما حدث للغة الآرامية حدث أيضاً لكتابتها إذ تطورت منذ آثارها الكتابية الأولى في القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد، نحو التدوير مع شيء من التربع، بينما كانت تكثر فيها الروايات في أدوارها الأولى، أصبحت شبه مدورة في أدوارها الأخيرة... فنشأت نماذج جديدة للخط الآرامي في مختلف نواحي الشرق، ومالت بعض تلك الخطوط إلى التربع كالخط العربي والخط التدمرى والخط السريانى السطرنجيلي. أما الخطان النبطي والحضرى ففيهما التربع والتدوير، وأما المنداعي فهو أكثر تدويراً.(15)

الكتابة السريانية:

١- متى وأين نشأت:

يقول بعض الباحثين أن آرامية الـرها المعروفة بالسريانية هي الوراث الوحيد للغة الآرامية والتي لا زالت تعيش حتى الآن، بصرف النظر عن بعض اللهجات الآرامية الأخرى كلهجة أهل معلولاً مثلاً. فيكون الخط السرياني هو الوريث المباشر للخط الآرامي، وقد رأى في المقدمة وفي بحث اللغة الآرامية كيف تفرعت هذه إلى لهجات عده، مع ملاحظة اختلاف الباحثين في سرد هذه التفرعات اللهجية، ونسبة كل واحدة منها إلى الأخرى. لقد اكتشف العديد من آثار الخط السرياني في طوره الأول، وأكثرها في منطقة أعلى نهري دجلة والفرات، وقسم منها في سوريا وفلسطين، وستدرج من الأرض إلى الأقل وضوحاً ثم إلى المشكوك فيه.

أقدم كتاب مخطوط حفظ حتى الآن باللغة السريانية يرقى إلى مستهل القرن الخامس للميلاد وهو مخطوط

أقدم قلم آرامي حفظ لنا إلى يومنا هذا، و يستعمله الآراميون ولا يعرفونه، بل تستعمله أمة غربية أي اليهود، وهم يحتزموه هذا القلم الآرامي ويعظمونه غاية التعظيم، حتى إنهم يتحدون كل ما يكتب به شيئاً مقدساً..(12). ولا أدرى هنا كيف جعل الكاتب الأنباط جيلاً من السريان، وكأن هؤلاء أصل وأولئك فرع، وهذا غير صحيح... ثم نجده يعترف هنا بأن القلم العربي الكوفي متولد من القلم العربي الحميري، في حين نجده في مكان آخر من كتابه ينسب القلم الكوفي إلى القلم السطرينجيلي السرياني.

تفريع الكتابة الآرامية:

دام العهد الذهبي للآرامية في ظل حكم الكلدانين ثلاثة قرون، وأشهر ما وصل منها حكمة آحیقار المكتشفة في جزيرة (فيلة) في الصعيد المصري (13) والتي يرتقي عهد كتابتها إلى القرن الخامس قبل الميلاد. إلا أن الإسكندر الكبير الذي استولاه على الشرق بعد أن قوض حكم الفرس الأحمينيين، فرض على الدولة الجديدة اللغة اليونانية، لغة رسمية عوضاً عن الآرامية فقدت الأخيرة عوامل وحدتها وتفرعت إلى لهجات أهمها: لهجة فلسطين اليهودية سليلة آرامية بابل الكلدانية، واللهجات النبطية والتدمرية والحضرية والرهاوية. كما بقىت في جنوبى ما بين التهرين لهجة أخرى هي المنداعية، وكان عامل الدين سبب بقاء اللهجتين الفلسطينية والمنداعية (أي لهجة الصائب)(14). وعلى أثر تقسيم دولة الإسكندر المقدوني الغازي بعد موته بين قواده، ووهن هذه الدول تحت ضربات الجيوش الرومانية الزاحفة نحو الشرق، قامت بعد مدة دولات